قد يتساءل البعض : ما علاقة هذا التذييل للآية بموضوع الدعوة إلى الله ؟

يريد الحق سبحانه أن يُبيِّن لنا حساسية هذه المهمة ، وأنها تُبنى على الإخلاص لله في توجيه النصيحة ، ولا ينبغي للداعية أبداً أنْ يغُشَّ في دعوته ، فيقصد من ورائها شيئاً آخر ، وقد تقوم بموعظة وفي نفسك استكبار على الموعوظ ، أو شعور أنك أفضل منه أو أعلم منه .

ومن الناس ـ والعياذ بالله ـ مَنْ يجمع القشور عن موضوع ما ، فيظن أنه أصبح عالماً ، فيضر الناس أكثر ممَّا ينفعهم .

إذن : إنْ قُبِل الغش في شيء فإنه لا يُقبل في مجال الدعوة إلى الله ، فإياك أنْ تغشَّ بالله في الله ؛ لأنه سبحانه وتعالى أعلم بمَنْ يضل الناس ، ويصدهم عن سبيل الله ، وهو أعلم بالمهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

نلاحظ أن هذا المعنى ورد في قوله تعالى :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٩٤﴾ ﴾

[البقرة]

(١) سبب نزول الآية : روى الدارقطني عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون عن قتلى أحد ، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه ، رأى حمزة قد شُق بطنه ، واصطُلم أنفه ، وجُدعت أذناه ، فقال : « لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثِّلنَّ مكانه بسبعين رجلاً » ، فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل] فصبر رسول الله ﷺ ولم يمثل بأحد . ذكره القرطبي في تفسيره (٣٩٢٨/٥) والواحدي في « أسباب النزول » (ص١٦٢) .

وبمقارنة الآيتين نرى أنهما يقرران المثلية فى رد الاعتداء :

﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ..(١٢٦) ﴾ [النحل]

و ﴿ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ..(١٩٤) ﴾ [البقرة]

إذن : الحق سبحانه ، وإنْ شرع لنا الرد على الاعتداء بالمثل ، إلا أنه جعله صعباً من حيث التنفيذ ، فمَن الذى يستطيع تقدير المثلية فى الرد ، بحيث يكون مثله تماماً دون اعتداء ، ودون زيادة فى العقوبة ، وكأن فى صعوبة تقدير المثلية إشارةً إلى استحباب الانصراف عنها إلى ما هو خير منها ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

فقد جعل الله فى الصبر سَعة ، وجعله خيراً من رَدِّ العقوبة ، ومقاساة تقدير المثلية فيها ، فضلاً عما فى الصبر من تآليف القلوب ونَزْع الأحقاد ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

ففى ذلك دَفْع لشراسة النفس ، وسَدٌّ لمنافذ الانتقام ، وقضاء على الضغائن والأحقاد .

وقوله : ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

الخيرية هنا من وجوه :

أولاً : فى الصبر وعدم رَدِّ العقوبة بمثلها إنهاءٌ للخصومات ،

وراحة للمجتمع أن تفزعه سلسلة لا تنتهى من العداوة .

ثانياً : مَنْ ظُلِم من الخلق ، فصبر على ظلمهم ، فقد ضمن أن الله تعالى فى جواره ؛ لأن الله يغار على عبده المظلوم ، ويجعله فى معيته وحفظه ؛ لذلك قالوا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضنَّ عليه بالظلم .

والمتتبع لآيات الصبر فى القرآن الكريم يجد تشابهاً فى تذييل بعض الآيات .

يقول تعالى :

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان]

وفى آية أخرى :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى]

ولا ننسى أن المتكلم هو الله ، إذن : ليس المعنى واحداً ، فلكل حرف هنا معنى ، والمواقف مختلفة ، فانظر إلى دقّة التعبير القرآنى .

ولما كانت المصائب التى تصيب الإنسان على نوعين :

النوع الأول : هناك مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره ، وليس له غريم فيها ، كمن أُصيب فى صحته أو تعرَّض لجائحة فى ماله ، أو انهار بيته .. إلخ .

وفى هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بألم الفَقْد ولذْعة الخسارة ، لكن لا ضغن فيها على أحد .

إذن : الصبر على هذه الأحداث قريب ؛ لأنه ابتلاء وقضاء وقدر ، فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى توكيد ، ويناسبه قوله تعالى :

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان]

أما النوع الآخر : فهو المصائب التى تقع بفعل فاعل ، كالقتل مثلاً ، فإلى جانب الفَقْد يوجد غريم لك ، يثير حفيظتك ، ويهيج غضبك ، ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر فى هذه أصعب وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد كما فى الآية الثانية :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى]

فاستعمل هنا لام التوكيد ؛ لأن الصبر هنا شاقّ ، والفرصة مُتَاحَة للشيطان لِيُؤلِّب القلوب ، ويثير الضغائن والأحقاد .

كما نلاحظ فى الآية الأولى قال : (وَاصْبِرْ) .

وفى الثانية قال : (صَبَر وغَفَر) لأن أمامه غريماً يدعوه لأنْ يغفر له .

ويُحكى فى قصص العرب قصة اليهودى المرابى الذى أعطى رجلاً مالاً على أنْ يردَّه فى أجل معلوم ، واشترط عليه إنْ لم يَفِ بالسداد فى الوقت المحدد يقطع رَطْلاً من لحمه ، ووافق الرجل ، وعند موعد السداد لم يستطع الرجل أداء ما عليه .

فرفع اليهودى الأمر إلى القاضى وقَصَّ عليه ما بينهما من اتفاق ، وكان القاضى صاحب فطْنة فقال : نعم العقد شريعة المتعاقدين ، وأمر له بسكين . وقال : خُذْ من لحمه رَطْلاً ، ولكن فى ضربة

واحدة ، وإنْ زاد عن الرطل أو نقص أخذناه من لحمك أنت .

ولما رأى اليهودى مشقة ما هو مُقْدِم عليه آثر السلامة وتصالح مع خصمه .

والسؤال الآن : ما علاقة[1] هذه الآية :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ.. (١٢٦) ﴾ [النحل]

بما قبلها :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ (١٢٥) ﴾ [النحل]

الدعوة إلى الله منهج يلفت الإنسان ـ خليفة الله فى أرضه ـ أنْ يلتزمَ بمنهج الله الذى استخلفه ، ووضع له هذا المنهج ليُنظّم حركة حياته ، والداعية يواجه هؤلاء الذين يُفسدون فى الأرض ، ويحققون لأنفسهم مصالح على حساب الغير ، والذى يحقق لنفسه مصلحة على حساب غيره لا بُدَّ أن يكون له قوة وقدرة ، بها يطغى ويستعلى ويظلم .

فإذا جاء منهج الله تعالى ليعدل حركة هؤلاء ويُخرجهم مما ألفُوه ، وينزع منهم سلطان الطغيان والظلم ، ويسلبهم هذا السوط الذى يستفيدون به ، فلا بُدَّ أنْ يُجادلوه ويصادموه ويقفوا فى وجهه ، فقد جمع عليهم شدة النصح والإصلاح ، وشدة تَرْك ما ألفوه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٢٨) : « المعنى متصل بما قبلها من المكى اتصالاً حسناً ، لأنها تتدرج الرتب من الذى يُدْعى ويوعظ ، إلى الذى يجادل ، إلى الذى يُجازى على فعله ، ولكن ما روى الجمهور أثبت » وذلك فى أن هذه الآية مدنية .

فعلَى الداعية - إذن - أن يتحلى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن ، فإذا ما تعدَّى أمرُهم إلى الاعتداء على الداعية ، إذا ما استشرى الفساد وغلبت شراسة الطباع ، فسوف نحتاج إلى أسلوب آخر ، حيث لم يَعُدْ يُجدى أسلوب الحكمة .

ولا بُدّ لنا أن نقفَ الموقف الذى تقتضيه الرجولة العادية ، فضلاً عن الرجولة الإيمانية ، وأن يكون لدينا القدرة على الرد الذى شرعه لنا الحق سبحانه وتعالى ، دون أن يكون عندنا لَدَد فى الخصومة ، أو إسراف فى العقوبة .

فجاء قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ.. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وفى الآية تحذير أن يزيدَ الردّ على مثله ، وبذلك يتعلم الخصوم أنك خاضع لمنهج رباني عادل يستوى أمامه الجميع ، فهم وإن انحرفوا وأجرموا فإن العقاب بالمثل لا يتعداه ، ولعل ذلك يلفتهم إلى أن الذى أمر بذلك لم يطلق لشراسة الانتقام عنانها ، بل هَدَّأها ودعاها إلى العفو والصفح ، ليكون هذا أدعى إلى هدايتهم .

وهذا التوجيه الإلهى فى تقييد العقوبة بمثلها قبل أن يتوجه إلى أمته ﷺ توجّه إليه ﷺ فى تصرُّف خاص ، لا يتعلق بمؤمن على عموم إيمانه ، ولكن بمؤمن حبيب إلى رسول الله ، وصاحب منزلة عظيمة عنده ، إنه عمه وصاحبه حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء رضى الله عنه .

فقد مثَّل به الكفار فى أُحُد ، وشقَّتْ هند بطنه ، ولاكت كبده ،

فشقَّ الأمر على رسول الله ﷺ ، وأثّر فى نفسه ، وواجه هذا الموقف بعاطفتين : عـاطفته الإيمانية ، وعاطفة الرحم والقرابة فـهو عمه الذى آزره ونصره ، ووقف إلى جواره ، فقال فى انفعاله بهذه العاطفة :

« لئن أظهرنى الله عليهم لأمثّلنَّ بثلاثين رجلاً منهم »[1] .

ولكن الحق سـبحـانه العادل الذى أنزل مـيزان العـدل والحق فى الخلق هدَّأ من رَوْعه ، وعدَّل له هذه المسألة ولأمته من بعده ، فقال :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

والمـتأمل للأسلوب القـرآنى فى هذه الآية يلحظ فـيها دعـوة إلى التحنُّن علـى الخصم والرأفة به ، فـالمتحـدث هو الله سبـحانه ، فكل حـرف له مـعنى ، فلا تـأخذ الكلام عـلى إجمـاله ، ولكن تأمل فـيـه وسوف تجد من وراء الحرف مراداً وأن له مطلوباً .

لماذا قال الحق سبحانه : (وإنْ) ولم يستخدم (إذا) مثلاً ؟

إن عاقبتم : كأن المعنى : كان يحب ألاَّ تعاقبوا .

أما (إذا) فـتفيـد التحقـيق والتأكيـد ، والحق سبـحانه يريد أنْ يُحنِّن القلوب ، ويضع ردَّ الـعقـوبة بمثلهـا فى أضـيق نطاق ، فهـذه رحمة حتى مع الأعداء ، هذه الرحمـة تُحبِّبهم فى الإسلام ، وتدعوهم إليـه ، وبهـا يتحوّل هؤلاء الأعـداء إلى جنود فى صفـوف الدعوة إلى الله .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٩٢) وعزاه لمحمد بن إسحاق فى السيرة .

كما أن فى قوله : (عَاقَبْتُمْ) دليل على أن ردَّ العقوبة يحتاج إلى قوة واستعداد ، كما قال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

كأنه يقول : كونوا دائماً على استعداد ، وفى حال قوة تُمكنكم من الردِّ إذا اعتُدِى عليكم ، كما أن فى وجود القوة والاستعداد ما يردع العدو ويرهبه ، فلا يجرؤ على الاعتداء من البداية ، وبالقوة والاستعداد يُحفظ التوازن فى المجتمع ، فالقوى لا يفكِّر أحد فى الاعتداء عليه .

وهذا ما نراه الآن بين دول العالم فى صراعها المحموم حول التسلُّح بأسلحة فاتكة .

وكلمة : ﴿ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

نلاحظ أن الردَّ على الاعتداء يُسمَّى عقوبة ، لكن الاعتداء الأول لماذا نُسميه أيضاً عقوبة ؟

قالوا : لأن هذه طريقة فى التعبير تسمَّى « المشاكلة »[1] ، أى : جاءت الأفعال كلها على شاكلة واحدة .

ومن ذلك قوله تعالى :

---

(١) المشاكلة : مصطلح من مصطلحات بديع القرآن معناه : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً . [الاتقان فى علوم القرآن ١ / ٢٨١]

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا (٤٠)﴾ [الشورى]

لأن ردَّ السيئة لا يُسمَّى سيئة .

ولسائل فى هذه القضية أن يسأل : طالما أن الإسلام يسعى فى هذه المسألة إلى العفو ، فلماذا لم يُقرِّره من البداية ؟ وما فائدة الكلام عن العقوبة بالمثل ؟

نقول : لأن المجتمع لا يكون سليم التكوين إلا إذا أَمِن كل إنسان فيه على نفسه وعِرْضه وماله .. إلخ . وهذا الأمن لا يتأتّى إلا بقوة تحفظه ، كما أن للمجتمع توازناً ، هذا التوازن فى المجتمع لا يُحفظ إلا بقوة تضمن أداء الحقوق والواجبات ، وتضمن أن تكون حركة الإنسان فى المجتمع دون ظلم له .

كما أن للحق سبحانه حكمة سامية فى تشريع العقوبة على الجرائم ، فهدف الشارع الحكيم أنْ يَحُدَّ من الجريمة ، ويمنع حدوثها ؛ فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرأ على جريمته ، ففى تشريع العقوبة رحمة بالمجتمع وحِفْظ لسلامته وأَمْنه .

ونرى البعض يعترض على عقوبة الردة ، فيقول : كيف تقتلون مَن يرتد عن دينكم ؟ وأين حرية العقيدة إذن ؟

نقول : فى تشريع قتل المرتد عن الإسلام تضييق لمنافذ الدخول فى هذا الدين ، بحيث لا يدخله أحد إلا بعد اقتناع تام وعقيدة راسخة ، فإذا علم هذا الحكم من البداية فللمرء الحرية يدخل

أو لا يدخل ، لا يغصبه أحد ، ولكن ليعلم أنه إذا دخل ، فحكم الردة معلوم[١] .

إذن : شرعَ الإسلامُ العقوبةَ ليحفظ للمجتمع توازنه ، وليعمل عملية ردع حتى لا تقع الجريمة من البداية ، لكن إذا وقعتْ يلجأ إلى علاج آخر يجتثُّ جذور الغلِّ والأحقاد والضغائن من المجتمع .

لذلك سبق أن قلنا عن عادة الأخذ بالثأر فى صعيد مصر : إنه يظل فى سلسلة من القتل والثأر لا تنتهى ، وتفزَّع المجتمع كله ، حتى الآمنين الذين لا جريرة لهم ، وتنمو الأحقاد والكراهية بين العائلات فى هذا الجو الشائك ، حتى إذا ما تشجَّع واحد منهم ، فأخذ كفنه على يديه وذهب إلى ولىِّ القتيل ، وألقى بنفسه بين يديه قائلاً : ها أنا بين يديك وكفنى معى ، فاصنع بى ما شئت ، وعندها تأبى عليهم كرامتهم وشهامتهم أنْ يثأروا منه ، فيكون العفو والصفح والتسامح نهاية لسلسلة الثأر التى لا تنتهى .

ثم يقول الحق سبحانه[٢] :

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » أخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٨٢ ، ٢٨٣) ، والبخارى فى صحيحه (١٢/٢٦٧ - فتح البارى) ، وابن ماجه فى سننه (٢٥٣٥) ، وكذا الترمذى (١٤٥٨) .

(٢) قال ابن زيد : هى منسوخة بالقتال . وجمهور الناس على أنها محكمة . أى : اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلة . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٣٠] .

بعد أن ذكرتْ الآيات فضل الصبر وما فيه من خيرية ، وكأن الآية السابقة تمهد للأمر هنا (وَاصْبِرْ) ليأتمر الجميع بأمر الله ، بعد أنْ قدّم لهم الحيثيات التى تجعل الصبر شجاعة لا ضعفاً ، كما يقولون فى الحكمة : من الشجاعة أنْ تجبُنَ ساعة .

فإذا ما وسوس لك الشيطان ، وأغراك بالانتقام ، وثارت نفسُك ، فالشجاعة أنْ تصبر ولا تطاوعهما .

قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ.. (١٢٧) ﴾ [النحل]

من حكمة الله ورحمته أنْ جعلك تصبر على الأذى ؛ لأن فى الصبر خيراً لك ، والله هو الذى يُعينك على الصبر ، ويمنع عنك وسوسة الشيطان وخواطر السوء التى تهيج غضبك ، وتجرّك إلى الانتقام .

والحق سبحانه وتعالى يريد من عبده أن يتجه لإنفاذ أمره ، فإذا علم ذلك من نيته تولّى أمره وأعانه ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إياك أن تعتقد أن الصبر من عندك أنت ، فالله يريد منك أن تتجه إلى الصبر مجرد اتجاه ونية ، وحين تتجه إليه يُجنّد الله لك الخواطر الطيبة التى تُعينك عليه وتُيسّره لك وتُرضيك به ، فيأتى صبرك جميلاً ، لا سخطَ فيه ولا اعتراضَ عليه .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ.. (١٢٧) ﴾ [النحل]

لقد امتنَّ الله على أمة العرب التى استقبلتْ دعوة الله على لسان رسوله ﷺ ، بأنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم ، يعرفون حَسَبَه ونَسَبه وتاريخه وأخلاقه ، وقد كان ﷺ مُحباً لقومه حريصاً على هدايتهم ، كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

أى : تعز عليه مشقتكم ، ويؤلمه عَنَتكم وتعبكم ، حريص عليكم ، يريد أن يستكمل لكم كل أنواع الخير ؛ لأن معنى الحرص : الضَّنّ بالشيء ، فكأنه ﷺ يضِنّ بقومه .

وقد أوضح هذا المعنى فى الحديث الشريف :

« إنما مثلى ومثَل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فأنا آخذ بحجزكم[1] وأنتم تقحّمون فيه »[2] .

لذلك حزن رسول الله ﷺ على قومه لما رأى من كفرهم وعنادهم وتكبُّرهم عن قبول الحق ، وهو يريد لهم الهداية والصلاح ؛ لأنك إذا أحببتَ إنساناً أحببتَ له ما تراه من الخير ، كمن ذهب إلى سوق ، فوجدها رائجة رابحة ، فدلَّ عليها من يحب من أهلِه ومعارفه .

كذلك لما ذاق رسول الله ﷺ حلاوة الإيمان أحبَّ أنْ يُشاركه قومه هذه المتعة الإيمانية .

---

(١) حُجزة الإنسان : معْقد السراويل والإزار . واحتجز بالإزار إذا شدّه على وسطه . فاستعاره للالتجاء والاعتصام والتمسُّك بالشىء والتعلق به . [لسان العرب - مادة : حجز] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٤) كتاب الفضائل ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والحق سبحانه وتعالى هنا يُسلِّي رسوله ، ويخفف عنه ما صُدم في قومه ، يقول له : لا تحزن عليهم ولا تُحمِّل نفسك فوق طاقتها ، فما عليك إلا البلاغ . ويخاطبه ربه في آية أخرى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

أي : لا تكن مُهْلكاً نفسك أسفاً عليهم .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل]

الضيق : تأتي بالفتح وبالكسر ، ضِيْق ، ضَيْق[1] .

والضيق : أن يتضاءل الشيء الواسع أمامك عما كنت تُقدِّره ، والضيق يقع للإنسان على درجات ، فقد تضيق به بلده فينتقل إلى بلد آخر .

وربما ضاقت عليه الدنيا كلها ، وفي هذه الحالة يمكن أنْ تسعه نفسه ، فإذا ضاقتْ عليه نفْسه فقد بلغ أقصى درجات الضيق ، كما قال تعالى عن الثلاثة[2] الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ .. ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) قال الفراء : الضِّيق ما ضاق عنه صدرك . والضَّيق ما يكون في الذي يتسع ويضيق . مثل الدار والثوب . وقال ابن السكيت : هما سواء . [تفسير القرطبي ٥/٣٩٣٠] .

(٢) هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع . تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك دون عذر ، فعوقبوا بأن هجرهم المسلمون نحواً من خمسين ليلة بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولكنهم صبروا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم مع رسول الله ﷺ في تخلفهم وأنه كان عن غير عذر . [تفسير ابن كثير ٢/٣٩٩] بتصرف .

فالحق سبحانه ينهى رسوله ﷺ أنْ يكون فى ضيق من مكر الكفار ؛ لأن الذى يضيق بأمر ما هو الذى لا يجد فى مجال فكره وبدائله ما يخرج به من هذا الضيق ، إنما الذى يعرف أن له منفذاً ومَخْرجاً فلا يكون فى ضَيْق .

فالمعنى : لا تَكُ فى ضيق يا محمد ، فالله معك ، سيجعل لك من الضيق مخرجاً ، ويرد على هؤلاء مكرهم :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

ولذلك يقول : لا كرب وأنت رب . فساعة أن تضيق بك الدنيا والأهل والأحباب ، وتضيق بك نفسك فليسعْك ربك ، ولتكُنْ فى معيته سبحانه ؛ ولذلك قال تعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

هذه قضية معيّة الله لمن اتقاه ، فمَن اتقى الله فهو فى جواره ومعيته ، وإذا كنت فى معية ربك فمَنْ يجرؤ أن يكيدك ، أو يمكرُ بك ؟

وفى رحلة الهجرة تتجلى معية الله تعالى وتتجسد لنا فى الغار ، حينما أحاط به الكفار ، والصِّدِّيق يقول للرسول ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدميه لَرآنا ، فيجيبه الرسول ﷺ وهو واثق بهذه المعية :

« يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[1] .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ، ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

فما علاقة هذه الإجابة من رسول الله بما قال أبو بكر ؟

المعنى : مادام أن الله ثالثهما إذن فهما فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ، فمَنْ كان فى معيته كذلك لا تدركه الأبصار .

وقوله : ﴿ اتَّقَوا .. (١٢٨) ﴾ [النحل]

التقوى فى معناها العام : طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ومن استعمالاتها نقول : اتقوا الله ، واتقوا النار ، والمتأمل يجد معناهما يلتقى فى نقطة واحدة .

فمعنى « اتق الله » : اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية وحاجزاً يحميك ، وذلك باتباع أمره واجتناب نهيه ؛ لأن للحق سبحانه صفات رحمة ، فهو : الرؤوف الرحيم الغفور ، وله صفات جبروت فهو : المنتقم الجبار العزيز ، فاجعل لنفسك وقاية من صفات الانتقام .

ونقول : اتقوا النار ، أى : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، والوقاية من النار لا تكون إلا بطاعة الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، إذن : المعنى واحد ، ولكن جاء مرّة باللازم ، ومرّة بلازم اللازم .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

المحسن : هو الذى يُلزم نفسه فى عبادة الله بأكثر مما ألزمه الله ، ومن جنس ما ألزمه الله به ، فإنْ كان الشرع فرض عليك خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فالإحسان أن تزيدها ما تيسَّر لك من النوافل ، وإنْ كان الصوم شهرَ رمضان ، فالإحسان أنْ تصومَ من باقى الشهور كذا من الأيام ، وكذلك فى الزكاة ، وغيرها مِمَّا فرض الله .

لذلك نجد أن الإحسان أعلى مراتب الدين ، وهذا واضح فى حديث جبريل حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1] .

والآية الكريمة تُوحى لنا بأن الذين اتقوا لهم جزاء ومعيّة ، وأن الذين هم محسنون لهم جزاء ومعيّة ، كُلٌّ على حسب درجته ؛ لأن الحق سبحانه يعطى من صفات كماله لخَلْقه على مقدار معيتهم معه سبحانه ، فالذى اكتفى بما فرض عليه ، لا يستوى ومَنْ أحسن وزاد ، لا بُدَّ أن يكون للثانى مزيّة وخصوصية .

وفى سورة الذاريات يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

لم يقل « مؤمنين » ؛ لأن المؤمن يأتى بما فُرِض عليه فحسب ، لكن ما وجه الإحسان عندهم ؟

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال ابن حجر فى الفتح (١/ ١٢٠) : « إحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود . بأن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه ، وهو قوله « كأنك تراه » . وأن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل ، وهو قوله « فإنه يراك » .

يقول تعالى :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

وكلها أمور نافلة تزيد عما فرض الله عليهم .

ويجب أن نتنبه هنا إلى أن المراد من قوله تعالى :

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ليست الزكاة ، بل هي الصدقة ، لأنه في الزكاة قال سبحانه :

﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ.. (٢٤) ﴾ [المعارج]